نبعة السهام

•

عمر بن الخطاب

بينما كان عمر بن الخطاب يحج في خلافته ذات عام مرّ بجبل يقال له « ضَجْنَان » على بريد [٢] من مكة في طريق عرفات ، فوثبت إلى خاطره ذكرى شقاء أليم كان قد ألم به من سياط أبيه ، فوقف يتأمل المكان والذكرى ويسترسل في تأمله ويمدّ نظره الى الوادي ويرجع به الى القمة ، حتى اذا استمكن قال : لا إله إلا الله العظيم ، المعطي من شاء ما شاء ، كنت في هذا الوادي في مِدْرعة صوف أرعى إبل الخطاب ، وكان فظًّا ، يتعبني إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة وليس بيني وبين الله أحد !

وقف عمر هكذا يتأمل ويتذكر ويقول ذلك القول ليُشهد الناس على ما كان من حاله في أمر الشقاء طفلًا وصبياً يلهب أبوه

---

(١) النبع شجر للقسي والسهام ينبت في قمم الجبال.

(٢) البريد فرسخان أو اثنا عشر ميلا — معجم البلدان ج ٥ ص ٤٢٦

الخطاب جلدته بسوطه ليرعى الابل في منأى عن مكة ، وكان عليه ألا يقصّر ، بل عليه ألا يستريح . ثم نظر عمر وهو يعيد بصره من حضيض الوادي ويصعّده الى قمة الجبل فاذا هو قد ارتفع خليفة على الناس وصعد فوقهم جميعاً كما صعدت قمة « ضجنان » وأشرفت في عزة وعلو على حضيض الوادي . وارتسم في خاطر عمر منظران قد تباينا ، ودارت فيه على عجل خيالات حزن وعَجب ، فشهد بما كان فيه من شقاء الطفولة وظلمة الشرك ، ثم عجب لما أصابه من النعيم حين أسلم فصار على رؤوس الامكنة وفوق هامات الناس وليس بينه وبين الله احد .

ولم ينكر عمر بن الخطاب فضل ابيه الخطاب حين ذكره بالقسوة ، ولكنه أشار الى يده عليه حيث ألهب فيه — منذ كان طفلًا وصبياً يرعى له إبله — جذوة إحساسه وهيّج حدته حين أتعبه في العمل وأمضّه وأوجعه ولم يمهّد لجنبه ليستريح ، فشبّ الراعي الصغير حمياً متحمساً ذا حدة وسطوة يحسن رعاية الابل ويلين قيادها ، ويصبر على عيش البادية متمدرعاً في صوف في مكان قصيّ عند وادي « ضجنان » .

فلما نقل الاسلامُ عمر من الظلمات الى النور ، وصعد عمر به الى حكم الناس وجدَ العربَ كالابل الآنفة [٣] ، تتّبع قائدَها ، وعليه أن ينظر أين يقودها ؟ وظلّت في عمر من سياط ابيه فزعةٌ من القسوة وبقيّة من الحدّة في صبرٍ لا ينفد وجهد لا يمل ورأي لا يتردد ، وكأنما تحول فيه هيْجُ الحدة وخوف العقوبة الى طبع

(٣) الجمل الآنف الذي وضعت في أنفه البرة وحلقة الحديد فاشتكى أنفه منها.

دافع يحثه على العدل والمضيّ والتنفيذ ، فلما صار اليه أمر الناس رحم فأطمع وقسا فزجر ، وفيما بين الرحمة والقسوة ساق الناس سوْق الابل ورعاهم رعيتها فاستطاع ان يحملهم على الطريق .

اولاد عمر

وتدلى هذا العرق والميراث من عمر بن الخطاب في قوة بيّنة إلى أولاده ، وكانت له فيهم مظاهر تختلف وتتباين ، غير انها كانت كلها تنحرف نحو الحدّة وتنطبع بطابع عمريّ ، فاذا اراد بنو عمر شيئاً أقدموا واقتحموا فلم تمنعهم قوة ولم تكسرهم مخافة ، وإذا امتنعوا عن شيء صدّوا عن طبع وأمسكوا دون اصطناع حيلة . وحين حرّم عليهم أبوهم أن يكونوا خلفاء تجافت عن الخلافة جنوبهم وغضّت عن لمعتها قلوبهم وأبصارهم ، وامتنعوا عن اقتناع كأنه طبع في العرق ودم من الميراث ورثوه من هيجة نفس ابيهم إلى الخير والعدل في حماسة واندفاع . ولم يكن هذا المظهر من أولاد عمر إلا دلالة على الحدة الموروثة بدت في لون سلبيّ وصوت ساكت ، وكانت الدلالة أتم صمتاً وأسْكَنَ حركة في ابنه عاصم ابن عمر بن الخطاب .

عاصم بن عمر

وكانت مرّت سنون خمس على موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ولد عاصم بن عمر بالمدينة ، فلم يقدّر له أن يكون صحابياً ولكنه سمع حديث النبي من أبيه فرواه عنه . فلما شبّ وأيفع انتظم في جند إفريقية تحت راية عبد الله بن أبي سَرْح ، ودخل

اليها مجاهداً فاتحاً سنة سبع وعشرين ، فلما ادى ما كتب عليه من القتال وما تطوّع له من النصرة رجع إلى أهله بالمدينة وأقام بها . [٤]

وتعاظم عاصم بن عمر عن العبث كله في حياته ، ولم يرَ الناس أحداً منهم إلا أنه تكلم ببعض ما يريد غير عاصم ، فقد كان نزر الكلام من حياء وعفة وحبّ للمسالمة وإيثار للخير ، فاذا حدث بينه وبين أحد شيء وخاف عاصم أن يحتدم الغضب وتشتد الخصومة ترك مجلسه وطرح حجتـــه حتى تهدأ الثائرة ، ثم يعود إن رأى أن يعود . وورث أبناؤه منه خالص صفاته تلك ، فأطفأوا في نفوسهم ثائر الغضب ، وبرّدوا عنهم نيران الأحقاد .

وقد رووا أنه حدث بين عاصم وبين رجل من قريش كلام في ارض قد تنازعا فيها : فجعل القرشيّ يغالي في خصومته حتى تهدد عاصماً قائلاً له : ان كنت صادقاً فادخلها ! فقال له عاصم : أوَقد بلغ بك الغضب كل هذا ؟ هي لك ! فاستحيا القرشيّ من قوله وقال له : بل هي لك ! فتركها جميعاً لم يأخذها واحد منهما حتى ماتا ، ولم يتعرض لها أولادهما ، وبقيت طِلْقا حلالا للفقراء والمساكين . [٥]

فتاة بني هذول

وجرى القدر لعاصم بحظ حسن فكان زواجه — حين أراد أن

---

(٤) قيل انه مات بين خلافة يزيد وخلافة عبدالملك بن مروان ، فقيل انه مات سنة ٦٣ وقيل سنة ٧٠ أي انه مات بعد مولد عمر بن عبدالعزيز وفي طفولته — رياض النفوس ج ١ ص ٨٩ — النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٨٥ — شذرات الذهب ج ١ ص ٧٧ .

(٥) رياض النفوس ج ١ ص ٧٧

يتزوج — الى فتاة من بني هلال ، كانت ذات وعي وفهم وحكمة وتديّن ، زوّجها له أبوه عمر بن الخطاب . وقد كان عمر يريد هو أن يتزوج منها لولا أنه كبر ولم تبق فيه رغبة ، لأنه رآها أحق النساء بان ترتفع من خيمتها في حواشي المدينة الى بيوت الخلفاء .

فبينما كان عمر يَعُسّ في حواشي المدينـــة وهو خليفة أصابه الاعياء فاتكأ على جانب جدار ، فاذا امرأة تقول لفتاة لها — وقد أمنت من يسمع قولها — : قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء .

فقالت الفتاة : أو ما علمتِ بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟

قالت المرأة : وما كان من عزمته ؟

قالت : انه أمر مناديه فنادى ألاّ يشاب اللبن بالماء .

قالت المرأة: قومي الى اللبن فامذقيه ، فانك بموضع لا يراك عمر ولا مناديه .

فقالت الصبيّة : والله ما كنت لأطيعـــه في الملأ وأعصيه في الخلاء !

وطارت المقالة الى سمع عمر فعجب لمـا دار فيها ، وكان عجبه أشدّ لوعي فتـاة فقيرة من وراء الخيام تستجيب لنداء الخير من غير تردد . ولم يجفّ حلق المنادي من ندائه بالأمر عـلى الناس ، وهي في أشد الحاجة لمذق اللبن ليكثر فيكثر الربح ، ولم يكن عمر يعلم أن تلك التي تحضها على المذق أمّها ، ولو علم لذهب في تعجبه اكثر مما ذهب ، لأنّ الفتاة تغضب أمّها من حيث لا ينالها من رضا الخليفة شيء ، ومن يعلمه بأمرها ، وهو منها رفيع الشأن عالٍ بعيد ؟

وودّ عمر من فوره لو تزوّج هو نفسه هـذه الفتاة ، وإنهـا لخليقة ان تكون له زوجا، إلا انه كبر وعلت سنّه وفاتته الرغبة والميل . وكان معه مولاه « أسلم » فقـال له بصوت خافت لا يُسمَع في الخيمة : يا أسلم ، علّم البـاب واعرف الموضع ، ثم مضى في عسسه. فلما أصبح قال : يا أسلم ، امض الى ذلك الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها ، وهل لها من بعل ؟

قال أسلم : فأتيت الموضع فنظرت ، فاذا الفتـاة أيم لا بعل لها ، واذا تيك أمها واذا ليس لها رجل ، وكانت امرأة من بني هلال ، فأتيت عمر بن الخطاب ، فدعا ولده جميعا فقـال : هل فيكم من يحتاج الى امرأة أزوّجه ؟ ولو كان بأبيكم ميل ما سبقه احد منكم الى هـذه الجارية ! فقال له عاصم ابنه : يا أبت ، إنه لا زوجة لي فزوجني، فقال له: اذهب يا بنيّ فتزوجها ، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب ! فذهب عاصم فتزوجها [٦] .

ام عاصم

ولكن الفتاة الهلالية ذات الانقياد والطاعة لم تـلد لعاصم ذكراً ، وإنما ولدت أنثى ، وليس الذكر كالأنثى ، فلمـا ولدتها أسمتها « أم عاصم » . ونبتت أم عاصم نباتاً حسناً ، وتعلمت حين شبت رواية الحديث عن أبيها عن جدها ، وأثِرَ عنها مما روته من الحديث « نعم الادام الخل ! » [٧] ، وكأنمـا اصطبغت أم عاصم

---

(٦) ابن الجوزي ص ٦٥ ـ ابن عبد الحـكم ص ١٧ ـ شذرات الذهب ج١ ص ١١٩

(٧) الاغاني ج٨ ص ١٥٥

بصبغة بيت عمر فاتجهت نحو التقشف والزهد ، فكان هذا الحديث أشهر ما أثر انها روته ، ولم يكن في بيت عمر بن الخطاب ما هو أعظم من العبادة والزهد ولا أكثر دوراناً في الكلام من الحديث عن الخلّ والزيت !

ثم بدرت من أم عاصم حين كانت صبية وزوجة بوادر من المروءة والبرّ ، وهزتها فَعْلات الكرم والمودّة ، وحدثوا عنها أنها يوم مرت بأيْلَة [٨] وهي في طريقها الى زوجها عبد العزيز بن مروان والي مصر جاءها رجل معتوه فقدّم إليها هدية فقبلتها منه وأثابته عليها فرضي . فلما ماتت أم عاصم وتزوج عبد العزيز بأختها حفصة ومرت بأيلة تريد مصر في طريق أختها جاءها المعتوه نفسه فأهدى إليها فلم تثبه كما فعلت أختها من قبل ، فغضب المعتوه وقال : ليست حفصة من رجال أم عاصم ! فذهبت قولة المعتوه مثلا مضروباً شرودا [٩] .

عبد العزيز بن مروان

وكانت نشأت في الأروم الأموية فروعٌ قد طابت ومالت عن السرف ورغبت في القصد ، وكانت هذه الفروع ـ وهي ترفّ في ثياب من العز وأبهة الملك ـ ذات جوهر يجري مع الصفاء . وكان من بين هذه الفروع ذات النضرة عبد العزيز بن مروان : نشأ في المدينة فطبّعته على خيرها ورَوَى عن بعض رجالها الحديث كأبي هريرة وغيره [١٠] ، فلما رحل الى مصر وتولى أمرها

(٨) أيلة حين تنتهي أرض الحجاز وتبدأ الشام: معجم البلدان ج١ ص٣٩١

(٩) الأغاني ج٨ ص ١٤٦

(١٠) شذرات الذهب ج١ ص ٩٥

خالطت قلبَه الخشية لرقة أهلها وحسن طاعتهم ، وحين ابتعد عن أهله مال نحو العفّة وقصْد الاعتدال .

ورقّ ذوق عبد العزيز ، وبلغ من الترف حداً رفيعاً ، وتأثر بما رأى في الشام ومصر من الدور والأبنية والآثار ، فجعل يسابق الخلفاء والأمراء من اهله في البناء وإعلاء الجدران وضرب الدنانير ، ثم جعل يتخير الأمكنة لسكناه ، ويشتري عشرات من الدور يزخرفها وينجّدها ثم يهبها لأولاده [١١] . فلما عصف طاعون الجارف بأهل مصر القديمة (فسطاط عمرو) تحول عبدالعزيز إلى مكان طيب الهواء قد استحسن موضعه فاشتراه من قبط مصر بعشرة آلاف دينار ، واختط به مدينة حلوان ، بينها وبين الفسطاط نحو فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل ، ثم بنى داره بها وزخرفها وموّهها بالذهب ووضع قريباً منها مقياس حلوان .[١٢]

وطالت الأبهة بعبد العزيز وامتدت مفخرته فبنى دار الاضياف [١٣] وضرب حولها قباب الجود وادار فيها الموائد ودعا الى طعامه ، فكثرت بداره الضيفان وكثر رماد النار ، اذ كان له في كل يوم الف جفنة من الف قِدْر لِقَرى الناس .

كل يوم كأنه عيد اضحى عند عبد العزيزاو يوم فطر
وله الف جفنة مترعات كل يوم يمدها الف قدر [١٤]

---

(١١) انظر باب « ذكر الخطط » في فتوح مصر واخبارها لابن عبد الحكم
(١٢) النجوم الزاهرة ج١ ص ١٨٥
(١٣) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٣
(١٤) معجم البلدان ج٣ ص ٣٢٦

وكما كان عبدالعزيزبن مروان كثير قِرَى الضيفان كان جواداً على اصحابه الذين وفدوا عليه من المدينة والحجاز فبنى لهم الدور وغرس لهم النخيل في حلوان وجيزة الفسطاط [١٥] ، وكان يرد على الجميل الذي يوهب له بما ليس في حسبان احد، وكان مع ذلك كله على نية طيبة وناحية من الورع ، يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الحلال والحرام ، فحين أراد ان يتزوج اراد ذاتَ عِرْق ، فان العرق دساس ، واراد الا يتزوج من حسناء في منبت سوء كما فعـــل بعض اهله من بني مروان ، ثم رأى أن يكون مهر زوجته من أنقى ماله الحلال وأبعده عن الشك ، فقد كان بعض ماله مختلطاً مجلوباً من المظالم، ولعرفانه به وخوفه منه قال لقيّمه: اجمع لي اربعمائة دينار من طيب مالي فأني اريد ان اتزوج الى اهل بيت لهم صلاح، فجمع له قيّمه ما اراد ، فتزوج به ام عاصم [١٦] . وفرح عبد العزيز وفرح اهله بهـذا الزواج فرحاً عظيماً ، وأقبلوا عليـه بالمنح والهدايا حتى انهم ليقولون انهم أوقدوا المصابيح ليلة زواجه بطيب الغالية بدل الزيت .

عمر بن عبد العزيز

وكانت تاهت مظنّة عمر بن الخطاب وبشارته لابنه عاصم حين لم تلد الهلالية ذكرا، وولدت انثى، ثم رجعت بشارة عمر فتاهت مرة اخرى حين تزوّجت ام عاصم عبد العزيز بن مروان وولدت له اشقاء اربعة : ابا بكر وعمر ومحمدا وعاصما ، ولكنّ مواريث

(١٥) فتوح مصر وأخبارها ص ١٠٣

(١٦) صفة الصفوة ج٢ ص ٦٣

الأبوين اخذت تجتمع في عمر اكثر مما تجتمع في اخوته ، فورث منهما صفاتٍ تتفق وتختلف: ورث منهما معاً جوهر التقوى وحب المروءة والميل الى الانصاف. وورث من ابيه خاصة ذوقه الرفيع وادراكه الدقيق. وورث من امه خاصة حدتها وحماستها ولسَنها وقصدها في الكلام .

فانه حين استترت حدة عمر بن الخطاب في ابنه عاصم عادت فظهرت في حفيدته ام عاصم ، فلم تكن تدع امراً يهيجها إلا اهتاجت له ، ولم تترك غلطة ولا هفوة الا حاسبت عليها حساباً عسيرا . ولو كان المخطىء زوجها لم تعفه ولو كان هذا الزوج والياً واقفاً على رؤوس الناس .

وارسل عبد العزيز بن مروان والي مصر الى زوجته ام عاصم – وكانت في زورة لأهلها بالمدينة – ان تقدم عليه بحلوان مصر ومعها ابنها عمر ، فأخبرت عمَّها عبد الله بن عمر بن الخطاب بما رغب فيه زوجها ، فطلب اليها ان تلبي فتسافر ، وتُبقي ابنها عمر بالمدينة ليُنشَّأ ويُعلَم ، وقد صار آل الخطاب حوله يتعشقونه وينعطفون عليه بالمحبة والترضية ، لأنه وُلِد أكثر الناس شبهاً بأبيهم عمر ، فخلفته ام عاصم كما اراد عمها ، وقصدت مصر وحدها تريد حلوان .

فلما قدمت ولم يكن معها ابنها سألها عبد العزيز عنه فأخبرته ، فسر لبقائه بالمدينة في عطف اخواله آل الخطاب الذين آثرهم فتزوج منهم . وكانت وراء هذه الفرحة الظاهرة فرحةٌ اخرى ابلغ منها ، فان بني امية كانوا يتوددون لآل الخطاب ويرجون

رضاهم عسى ان يؤثر ذلك في اهل المدينـــة فيرضوا لمكان آل الخطاب فيهم . ورأى عبد العزيز من فوره ان يوظف لابنه من يخدمه ومن يعلمه هناك ، ثم اسرع فكتب بما علم وعمل الى اخيه عبد الملك الخليفة في دمشق ، فانطلقت نفس عبد الملك ، وفرح لهذه البادرة التي تقربه من المدينـــة باتصال حبله بآل الخطاب ، واجرى على ابن اخيه في كل شهر من مال الفيء الف دينار .

نشأة عمر

ونُشّيء عمر بن عبد العزيز في المدينة في مطارف النعمـــة ومباذل الجود ، ولجّت به نعمة أعمامه وحنان أخواله فمشى في الأرض وكأنما يكوّن لنفسه طبقة وحده ، هي بين السادة من أهل المدينة وبين السادة من أمراء دمشق ، غير ان مظاهره كلها كانت تميل إلى أن تكون صنعة أموية من أن تكون مطبوعة بطابع آل الخطاب .

شبّ عمر أبيض جميلا حسن اللون دقيق الوجه ممتلىء الجسم ريّان لا يصرف الرائي عنه بصره إذا رآه [17] ، فاذا ادّهن بالطيب عصفت في طريقه رائحة طيبـه فتشم من بعد ، فاذا جاوز الطريق بقيت رائحته مستقرة في المكان الذي يمرّ به ، وقد يتطيب بالعنبر فتبتل يده به ، فاذا طبع بخاتمه طينة الكتاب ورقعـــة القرطاس اتّسخت الطينة من العنبر [18] . وينتظر الناس ثيابه بباب الغسال

(١٧) ابن عبد الحكم ص ٥٣ ــ شذرات الذهب ج١ ص ١١٩ ــ ابن الجوزي ص ١٤٦

(١٨) ابن عبد الحكم ص ٢٢

فاذا ارسلها تسابق الناس اليه يعطونه دراهم كثـــيرة حتى يغسل ثيابهم في إثر ثيابه من كثرة ما حملت وما تترك في الماء من عنبر وطيب [١٩]

وإذا مشى عمر راح متبختراً متكبراً يتصنع له مشية ، هي له وحده ، يخترعها بين الكبر والتبختر ، كأنها مشية الجـــارية إذا كَعَبَت . وقد أعجبت مشيته تلك جواريَ المدينة وكواعبها فأخذن يقلدن المشية العمرية ، ويسرن على خطتها وموازينها حتى يرشقن اذا سرن وتجمل رشاقتهن في العيون [٢٠]

وأرخى عمر شعره ورجّله ، ولبس في إصبعـه خاتماً له فصّ ثمين ، أعطاه اياه ابن عمـــه الوليد ، كان جاءه من ارض المغرب وفتوح افريقية [٢١] ، وارتدى أغلى الأزر ، ولبس أثمن الأردية ، حتى كان يشتري الازار الواحد بمائة دينار ، ويشتري مُطرّف الخز بثمانمائة درهم ، ويضع يده عليه يجسّه فيستخشنه ولا يعجبه ، ويلبسه مكرهاً ، وصار الثوب لا يكون بالياً في نظره اذا بلي او مرّ عليه زمن طويل ، ولكنه صار يكون بالياً عنـده متى لبسه فوقعت عليه لأول لَبْسةٍ أنظار الناس . وقد غلا عمر في ذلك وتمادى حتى أوشك ألا يعجبه ثوب ، وكاد يجعل ماله كله في زينة الأثواب ثم لا يقنع حتى قال ذات مرة : لقد خفت أن يعجز رزقي عن كسوتي ! وما لبست ثوباً قط فرآه الناس عليّ الا خيّل لي

---

(١٩) الأغاني ج٨ ص ١٥٠ ـ صفة الصفوة ج٢ ص ٦٧

(٢٠) ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢١) ابن الجوزي ص ١١١

انه قد بلي [٢٢]

وبدت على عمر مظاهر التكبّر والترف الأمويّ الصارخ ، فاذا سار لم يسر الا في جماعة من غلمانه وعبيدانه ، واذا دخل طرف ازاره الثمين في نعله جذب الازار فشقه ولا ينحني على نعله فيخلعها لينطلق الازار ، واذا سقط أحد شقي ردائه عن منكبه تكبّر ان يرفعه ، واذا انقطعت نعله لم يعرج عليها ، فاذا لحقه بها احد من خدمه عنفه وردّها [٢٣] . وظل عمر هكذا يزيد مظاهره غلواً وتمادياً حتى رماه بالكبر كثير من الناس [٢٤]

ولقد عاد عليه هذا الغلو بالخطأ والعقوبة ، فمذ عني بترجيل شعره وتسكينه وهو مسرف في السكون الى مرجّلته لتتم له جماله ، حتى تأخر مرة عن الصلاة ، وكان مؤدبه صالح بن كيسان ينتظره بباب المسجد ، فلما جاء بأخرة من الوقت سأله صالح عن سبب ابطائه ، فقال له : كانت مرجلتي تسكّن شعري ؛ فقال له : بلغ بك حبك تسكين شعرك ان تؤثره على الصلاة ؟ وكتب بذلك الى أبيه في مصر ، فأرسل عبد العزيز رسولاً الى المدينة لم يكلمه حتى حلق شعره [٢٥]

ولم يملك عمر نفسه من ميراث الحدة الطاغية التي ورثها من امه وكأنما عادت فدوّت في دمائه صرخة عمر بن الخطاب ، وكثيراً

---

(٢٢) ابن الجوزي ص ١٤٦

(٢٣) ابن الجوزي ص ١٥٠ — ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢٤) ابن الجوزي ص ١٧٤

(٢٥) ابن الجوزي ص ٩

ما جرّته الى الزلل ، وقد خافه عبيده منها مخافة شديدة فأولوه طاعة عمياء ، وحين اجترأ عليه عبد له أسود وكان عمر في عنفوان حداثته أمسك عمر بتلابيبه وطرحه ، وجعل يضربه والعبد يستغيث ، وهو يثقل عليه بالضرب ، فتركه العبد يفعل . ثم رأى العبد أن يكسر فيه نخوة الحدّة ، فتربص لهدأة منه ذات يوم ثم قال له : هل جنيت جناية قط غضب بها عليك مولاك ؟

قال عمر : نعم .

فقال العبد : فهل عجّل عليك العقوبة ؟

قال : اللهم لا

قال : فلم تعجل عليّ ولم يعجل عليك ؟

فاستحيا عمر ، وعاودته الرقة ، وتركه قائلًا : قم فأنت حر لوجه الله تعالى ! ٢٦

رؤيا صادقة

وقد كرّم آل الخطاب عمر بن عبد العزيز وانحنت عليه ضلوعهم مع ان عبد العزيز بن مروان كان له عشرة أولاد ، هم : أبو بكر وعمر ومحمد وعاصم ، وامهم أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب . والأصبغ وسهل وسهيل والريان وأم الحكم وام البنين وأمهاتهم مختلفات ، بعضهم من ام عبدالله بنت عبدالله بن عمرو بن العاص وبعضهم من ام ولد اخرى رومية يقال لها مارية ٢٧ . فلعمر من ام عاصم أشقاء ثلاثة ، ولكن آل الخطاب أفردوا عمر

---

(٢٦) مروج الذهب ج ٢ ص ١٢١

(٢٧) فتوح مصر وأخبارها ص ١١٢

بالتكريم من بين أشقائه لأنه كان شبيه أبيهم ، ولأنهم رأوا فيه مخايل أمل يكاد يتحقق تأويلاً لرؤيا كان رآها أبوهم عمر بن الخطاب ، وكانت رؤيا يتمناها الناس أن تسرع فتولد ، فلما ولدت قويت وصارت فراسة عرفت من الخَلق والخُلق والحركة والمزاج ، ثم كانت كائناً حياً ينبض في ذات عمر بن عبد العزيز .

كان ابن الخطاب قد رأى رؤيا ، فقام منها يمسح النوم عن وجهه ويعرك عينيه ويقول : مَنْ هذا الذي يكون أشجّ من ولدي ، ويسير بسيرتي ؟ ٢٨ ، ويقول : إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً ٢٩ . وقد طوّفت هذه الرؤيا بعين ابن الخطاب فتعجب لها ، لأنه كان قد أصرّ على حرمان ولده جميعاً من الخلافة ، حتى من يكون كفئا لها منهم كابنه عبد الله . ولعل ابن الخطاب ودّ ألا يرى — حتى في منامه — مَنْ يلي الخلافة من ولده أو أحفاده . قد اشفق على أهله فلم يشأ ان يحمل أحد منهم إصْرَ امة ، ورَجا أن يخرجوا جميعاً من الدنيا ، قد حظوا منها بالكفاف لا عليهم ولا لهم .

ولكن عمر برغم نفسه وأمانيه صدّق الرؤيا . فلما قصّها على أهله صدقها أهله ، وانتظروا تأويلها . ودأب عبدالله بن عمر يقول قولة أبيه : ليت شعري ! من هـذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلاً ! ٣٠ . وانتقلت القولة من فم إلى فم ؛

---

(٢٨) ابن عبد الحكم ص ١٨

(٢٩) المعارف ص ١٠٨

(٣٠) ابن الجوزي ص ٧

ونشت في أولاد عمر وأنسبائهم ، وفي بني امية والناس ، وعرفها الشيخ والصبي والطفل ، فانتظروا جميعاً الأشجّ الذي يحكم ، وكانوا على ثقة من ان رؤيا عمر بن الخطاب لم تكن إلا حقاً وصدقاً. وحتى الحجاج بن يوسف الثقفي وقف في المنتظرين المصدقين ٣١

ثم حان لعمر بن عبد العزيز أن يزور أباه في مصر وهو غلام ، فارتحل اليه ، حتى اذا جاء حلوان انطلق يتدلل ويتنقّل كما شاء له هواه ليرى بحلوان مصر ما لم يرَ بالمدينة . وخرج ذات يوم يتفرج بما شاء ، واصطحب أخاً له غير شقيق هو « الأصبغ » فأتيا معاً اصطبل الخيل ، وبينما عمر يلعب بلا حذر ، ويمضي في غفلة من وراء الخيل رمحته بغلة ، فأصابت الرمحة جبينه — وكانت شديدة — فشجت رأسه ، فصاح الأصبغ ضاحكاً حين رأى ما أصاب أخاه ، وجعل يقول : الله اكبر ! هذا أشجّ بني مروان الذي يملك ! ٣٢

كان الدم يسيل من عمر ، وعمر يتألم ، والأصبغ فرح يضحك ويصيح ويكبّر ثم يقول : هذا أشجّ بني مروان ! والأصبغ أموي ، ولكنه يرى أخاه أشبه ببني الخطاب منه ببني أمية ، بل كان إخوة الأصبغ وأهله جميعاً يرون ذلك ، وكانت لحاظهم ترمق عمر وقلوبهم تطيف به كلما درج وخطا واتضحت فيه السمات ، فلما رمحته البغلة فشجّته لم يملك الاصبغ أن صاح بما صاح به ، وطغى شعوره عليه فاستعلن وصاح بما أيقن ضاحكاً مكبراً.

وبلغ الخبر دار الأمير فأسرعت ام عاصم الى ابنها وبلغت

---

(٣١) ابن عبد الحكم ص ١٤٢

(٣٢) المعارف ص ١٥٨ — ثمار القلوب ص ٨٨

مكانه في جماعة من خدمها قبل ان يبلغه أبوه ، وأقبلت عليه تضمه اليها وتمسح الدم عن وجهه [٣٣] ، ثم لم تمسك عليها حدتها حين علمت ان الأصبغ كان يضحك ، فأقبلت على زوجها تعذله وتلومه وتقول له في علانية حين جاء: أما الكبير فيُخدم، وأما الصغير فيُكرم، وأما الوسط فيضيع ! لم لا تتخذ لابني حاضناً حتى اصابه ما ترى ؟

وجعل عبد العزيز يغضي ويمسح الدم عن وجه ابنه وهو مغتاظ على الأصبغ لما بلغه من ضحكه عند سقوط عمر ، وقال له : يسقط أخوك فتضحك سروراً منك بما اصابه ؟ فقال الأصبغ : ليس ذلك أيها الأمير ! لم تضحكني شماتة به ، ولا سرور بسقوطه ، ولكني كنت ارى العلامات من اشج بني امية مجتمعة فيه إلا الشجة ، فلما سقط وشج سرني ذلك لتكامل العلامات فيه فأضحكني ، وهو والله أشجّ بني أمية [٣٤] ؛ فسكت عبد العزيز عن الأصبغ وتأمل شجة عمر فمال الى زوجته أم عاصم يقول لها : ويحك ! انه أشج بني مروان ، وانه لسعيد ! [٣٥]

وقيل لعمر منذ ذلك الحين : أشج بني مروان ، وأشج بني أمية ، وأشج قريش . وصار بهذه العلامة موضع الحسد من أمراء امية واولاد عبد الملك خاصة ، وقد قالوا إنه لما صار عمر غلاماً ادناه عبد الملك منه وجعل يؤثره ويرقّ له ، فاذا دخل عليه رفعه فوق ولده جميعاً إلا الوليد ، فعاتبه احد ابنائه على ذلك ، فقال له : اوما تعلم لمَ فعلتُ ذلك ؟ قال : لا ، فقال عبد الملك : إنه

(٣٣) الطبري ج ٥ ص ٣١٩

(٣٤) ابن عبد الحكم ص ٢٠

(٣٥) ابن الجوزي ص ٧ ـ الاغاني ج ٨ ص ١٤٩ ـ ابن عبد الحكم ص ١٩

سيلي الخلافة يوماً ، وهو اشجّ بني مروان الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ان تملأ جوراً ، فما لي لا احبه ولا أدنيه ! [٣٦]

الجوهر السليم

ولكنّ ابهة عمر ومظهره لم يكن لهما كل الطغيان على جوهره وقلبه ، فان قلبه — منذ طفولته — كان معلقاً بأخواله اولاد عمر ابن الخطاب ، يحبهم ويترسم طريقهم ويتمنى لو اصبح مثلهم . يرى فيهم القدوة الصالحة والمثل الكامل . وكان اذا زار خاله عبد الله ثم رجع من عنده رجع وقلبه مشغول به ، فيقول لأمه : يا أمّه ، أحب ان اكون مثل خالي عبد الله ، فتؤفف به امه ، وتستكثر عليه هواه ، وتقول له : اغرب اغرب ! انت تكون مثل خالك ؟ تقول ذلك وتكرره له [٣٧] . ولم تكن أم عاصم مخطئة فيما تؤفف وتستكثر ، فان عبدالله بن عمر كان اعظم آل الخطاب بعد ابيه ، وما من احد الا مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمر وابنه عبدالله ، ولم يعلق قلب رجل بالعبادة والخير كما علق قلب عبدالله حتى قال سعيد بن المسيب : لو شهدتُ لاحد انه من اهل الجنة لشهدت لعبدالله بن عمر [٣٨] .

وكذلك استتر وراء مشية الخيلاء والتبختر ومخايل الأنفة والكبر جوهر سليم ، واختبأ وراء حجاب خفيف ، فقد كان عمر — مع حدته على بعض غلمانه حين يخطئون — سهلَ الحجاب على

---

(٣٦) الاغاني ج ٨ ص ١٤٦

(٣٧) ابن عبد الحكم ص ١٩

(٣٨) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٣٤

اخوانه ، كريم المودة لهم ، يبتغي بمعروفه اهل الحاجة منهم . ولم يكن بينه وبين الغلمان الذين هم مثله ما يفرق بينه وبينهم او يفضله عليهم ، فتناولوا منه ما يتناول الأخ من اخيه الذي لا سلطان له عليه [٣٩] .

علم عمر

ثم اقبل عمر منذ رجع الى المدينة بعد شجته على حفظ القرآن [٤٠] وعلى دراسة الحديث ، عفيفاً مطيعاً سليم النفس ، حتى اذا تم له الحفظ أخذ يحدث عن بعض الصحابة واعلام التابعين ويروي عنهم : فحدث عن عبدالله بن جعفر وعن أنس وابي بكر بن عبد الرحمن وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود . وقد روى عمر عن ابن عتبة هذا اكثر مما روى عن جميع الناس [٤١]

ولم يكن يضاهي ابن عتبة عند عمر غير القاسم بن محمد بن ابي بكر ، أحد الثلاثة الذين ولدوا من فتيات فسادوا اهل الارض عبادة وزهداً ، وصاروا في زمانهم زينة الدنيا ، ففتنوا اهل المدينة بالزواج من الفتيات بعد ان كانوا عنهن راغبين [٤٢] وهم القاسم بن محمد وسالم بن عبدالله وعلي بن الحسين زين العابدين .

أما ابن عتبة فقد أحبه عمر وآثره ، وجعل يختلف الى مجلسه كثيراً اذ كان بحراً من بحور العلم [٤٣] ذا رأي وفقه وعفة ووقار ،

(٣٩) ابن الجوزي ص ٣٣ ، ١٧٤
(٤٠) شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩
(٤١) ابن الجوزي ص ٨
(٤٢) زين العابدين ص ٤٦
(٤٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٧

وكان يمنح العلم لتلاميذه كما يريد فان أحبّ أذن لهم فدخلوا عليه وجلسوا ، وان لم يحب تفرقوا ورجعوا . وعمر نفسه كان مع ابن عتبة واحداً من هؤلاء التلاميذ ، يذهب اليه مرة فيأذن له ويعلمه ، ويذهب اليه أخرى فيرده ولا يأذن له ، ويرجع عمر عن ابن عتبة راضياً اذا ردّه كما لو أذن له [٤٤]

ولقد خفّ ابن عتبة على قلب عمر وصار يملأ عليه نفسه وزمانه ، وسيطر عليه سيطرة قوية وثبتت صورته في خاطره ثم لم تزل ابدا . وصار يراه في مخيلته نائماً ويقظان . وما كان الخطب يصيب عمر حتى يرى ابن عتبة في منامه او صحوه يوصيه ويعظه . ولقد قال لامرأته ذات مرة : فوالله يا فاطمة ما أكاد اغضب الا كأني انظر الى عبدالله قائماً يخاطبني [٤٥] ، ولم يكن ذلك من عمر الا لانه ألفَ ابن عتبة وصُبِغت روحه به ، ونزعت عروقه اليه ، ثم اوشك عمر ان يكون كابن عتبة ، ووشيكاً سيكون .

ثم روى عمر الحديث عن خاله عبدالله بن عمر وعن عبد العزيز ابيه وعن عمر بن ابي سلمة والسائب ويوسف بن عبدالله بن سلام وعبادة بن الصامت وتميم الداريّ والمغيرة بن شعبة . ثم روى عن عائشة وام هانيء وخولة بنت الحكم ، ثم روى عن سعيد بن المسيب وعبدالله بن ابراهيم بن قارظ وعروة بن الزبير وعامر بن سعد بن ابي وقاص وابي بردة ، وعن عراك بن مالك والزهريّ ومحمد بن كعب ومطور الحبشيّ وابي حازم ، وعن خلق غير

---

(٤٤) ابن الجوزي ص ٩ ـ صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٧

(٤٥) ابن الجوزي ص ٢٤٩

هؤلاء كثير [٤٦]

أسند عمر الحديث ورواه عن جماعة من الصحابة وجماعة من التابعين ، ثم لم يلبث ان اشتغل عن الرواية فقلّ حديثه ، ولكنه كان قد بلغ مبلغاً كبيراً من العلم بالسنن ، وصار ثبتاً حجة حافظاً ، يرى ويستنبط ، بالغاً مرتبة الاجتهاد ، وأقبل عليه كثير من الفقهاء يأخذون عنه [٤٧] ، وعاد اليه بعض الذين أخذ منهم يأخذون منه [٤٨] ، حتى اذا ذهب الى الشام بعدُ جعل الفقهاء من اهلها واهل الحجاز يستفتونه فيفتيهم [٤٩] ، بل كان كل من ظنه محتاجاً الى العلم فامتحنه رآه مستغنياً ، حتى قال ميمون بن مهران أحد اصحابه : أتينا عمر فظننا انه يحتاج الينا فاذا نحن تلاميذه ! [٥٠] .

فاطمة بنت عبد الملك

فلما استوى شبابه تاقت نفسه الى مصاهرة عمه عبد الملك والزواج من ابنته فاطمة [٥١] ، وتاقت نفس عبدالملك الى مصاهرة عمر وتزويجه ابنته . فلما أذن القدر وحان الموعد ، وكان عمر في زورة لعبدالملك بالشام ، وهو في العشرين او دونها ، لم يتردد الخليفة ان يعرض عليه الزواج من ابنته ، فقبل عمر ووفى لعمّه جزاء ما اكثر له من بره ، وما اغدق عليه من هباته .

(٤٦) ابن الجوزي ص ١٢ ـ صفة الصفوة ج ٢ ص ٧١
(٤٧) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨
(٤٨) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٢
(٤٩) ابن الجوزي ص ٢٨
(٥٠) ابن الجوزي ص ٢٧
(٥١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١

قال عبدالملك لعمر وهو يزوره : قد زوجك أمير المؤمنين بنته فاطمة . فقال عمر : وصلك الله ياأمير المؤمنين ، فقد اجزلت وكفيت ! فسر عبدالملك واعجب برده وجوابه وابدى له استحسانه . وثار الحسد في بعض اولاده فقالوا له : هذا كلام تعلمّه فأداه!

ولم يَرَ عبدالملك بدّاً من ان ينتهز فرصة المفاجأة ليُظهر اولاده على ذكاء عمر ويخمد غضبهم عليه ، وظل يترقب حتى دخل عليه عمر يوماً وعنده اولاده فقال : ياعمر ، كم نفقتك ؟ فقال عمر : الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين . قال: ما هي؟قال: «والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقتروا، وكان بين ذلك قواما . »فقال عبدالملك لأولاده : منْ علمه هذا ؟ [٥٢]

القطائع

رَووْا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : جُعل رزق هذه الأمة في سنابك خيلها وأزّجة رماحها ما لم يزرعوا فاذا زرعوا كانوا من الناس [٥٣] . فلما فتح العرب الفتوح والبلدان لم يؤذن لهم بأن يملكوا الأرض ويزرعوها وانما ترك ذلك لأهل الذمة أو لمن يُسْلم منهم ويَوّد أن يظل زارعا .

واختلف الرواة في اول من اقطع العرب ارضاً من الرؤساء. فقيل إن رسول الله اقطع عليّ بن ابي طالب بئرَ قيس والشجرة، ثم اقطع ابو بكر الزبيرَ ما بين الجُرْف الى قناة، ثم اقطع عمر بن

(٥٢) ابن الجوزي ص ٢٧

(٥٣) الخراج للقرشي ص ٨١

الخطاب خمسةً من اصحاب رسول الله : سعدَ بن ابي وقاص وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرَتّ واسامة بن زيد والزبير بن العوام، ثم باع اسامة ارضه. وكذلك اقطع عمر عليّ بن ابي طالب يَنبع. وقالوا اقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا ارضاً ، فلما كان عمر بن الخطاب ترك في يد الرجل من الأرض ما يعمره واقطع بقيتها غيره [٥٤] .

وقالوا : اول من اقطع الارض عمر بن الخطاب ، فأنه اصفى اموال كسرى وآل كسرى وكلّ من فرّ عن ارضه او قتل في المعركة ، وكلّ مغيض ماء او اجمة ، فكان عمر بن الخطاب يُقطِع من هذه لمن اقطع ، وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث [٥٥] . وكان فيمن اقطعهم عمر رجل يقال له ابن سَنْدر، اقطعه عمر « منيَة الأصبغ » ولم يقْطِع عمر احداً من الناس من ارض مصر الا ابنَ سَنْدر ، فلم تزل له حتى مات فاشتراها الأصبغ ابن عبد العزيز من ورثته فسميت باسمه .[٥٦] وقالوا انه ليس بمصر قطيعة اقدم منها ولا افضل . وكان سبب ذلك انه كان لزنباع الجذاميّ غلام نصرانيّ يقال له سندر فوجده زنباع يقبّل جارية له فجبّه وقطع اذنيه وانفه ، فاتى سندر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل الى زنباع فقال : « لاتحملوهم ما لا تطيقون ،

---

(٥٤) الخراج للقرشي ص ٧٧ ، ٧٨ ، والجرف وقناة مكانان قرب المدينة

(٥٥) يرى ابو يوسف صاحب الخراج ان للامام العدل ان يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الاسلام ويضع ذلك في موضعه ولا يحابي به : الخراج لابي يوسف ص ٥٧

(٥٦) منية الأصبغ في شرقي مصر : معجم البلدان ج ٨ ص ١٨٨

واطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، فـــان رضيتم فأمسكوا ، وان كرهتموهم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، ومَنْ مثّل به او احرق بالنار فهو حر وهو مولى الله ورسوله ». فاعتق سندر واسلم ، ولكنه لم يَرَ لنفسه نفعاً ولا قدرة ، فقال اوصِ بي يا رسول الله ، قال : « أُوصي بك كلَّ مسلم ! » واقام سندر عند رسول الله يرفق به . فلما اشتد مرض رسول الله قال له سندر : يا رسول الله إنا كما ترى فمن لنا بعدك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اوصي بك كل مؤمن !

فلما توفي رسول الله اتى سندر الى ابي بكر فقـــال : احفظ فيّ وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فعـاله ابو بكر حتى توفي ، ثم اتى عمر بن الخطاب فقال له : احفظ فيّ وصية رسول الله ، فقال : نعم ان رضيتَ ان تقوم عنـدي اجريتُ عليك ما كان يُجْري عليك ابو بكر ، وإلا فانظر اي المواضع اكتب لك . فقـــال سندر : مصر ، فإنها ارض ريف ، فكتب له إلى عمرو بن العاص : احفظ فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قدم على عمرو أقطع له ارضاً واسعة وداراً ، فجعل سندر يعيش فيها ، فلما مات قبضت في مال الله[٥٧]

اما قطائع عمر في الشام فكانت لأجناد المسلمين حـــين عسكروا في مرج بَرَدَا ما بين المِزَّة ومرج شعبان[٥٨] جنبـــتي بَرَدَا وكانت مروجاً مباحة لأهـل دمشق وقراها ليست لأحد

(٥٧) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٧

(٥٨) شعبان بطن من القحطانية .

منهم ، فأقاموا بها حتى اوطأ الله المشركين ذلاً وقهراً ، واحيا كلُّ قوم محلتهم وهياوا فيها بناء، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم ، فبنوا الدور ونصبوا الشجر ، ثم امضاه عثمان ومن بعده [٥٩]

هكذا قيل . ولكن قوماً آخرين ينكرون ان يكون عمر ابن الخطاب قد اقطع وقالوا : لم يُقْطِع ابو بكر ولا عمر ولا عليّ ، وقالوا اول من اقطع القطائع عثمان بن عفان وبيعت الأرضون . وكان بدْء ذلك حين هزم الله الروم وهربوا عما في ايديهم من المزارع ،فصارت تلك المزارع والقرى صافيةً للمسلمين موقوفة ، يقبّلها [٦٠] والي المسلمين وتدخل قبالتها بيتَ المال فتخرج نفقةً مع ما يخرج من الخراج .

ثم كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان إن الذي اجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل امرائهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها، ووصف معاوية في كتابه المزارعَ الصافية بالشام وسمّاها له ، وسأله ان يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له ، وانها ليست من قرى اهل الذمة ولا الخراج . فكتب اليه عثمان بذلك كتابا . قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وافضى الى معاوية الأمر، فأقرّها على حالها ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء اهل بيته والمسلمين .

---

(٥٩) تاريخ مدينة دمشق المجلدة الأولى ص ٥٩٣ـ٥٩٧

(٦٠) التقبيل : الكفالة والضمان .

قالوا : ثم ان اناساً من قريش واشراف العرب سألوا معاوية ان يُقْطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان اقطعه اياها ففعل ، فمضت لهم اموالاً يبيعون ويهبون ويورثون . ثم انتقل معاوية من إقطاع الأرض الى إقطاع القرى والدور ، ولكنه لم يمض الأمر كله اذ ثار الناس وتكلموا فرجع عما نوى .

قالوا : اقطع ابنه يزيد بن معاوية قرية من قرى الفيوم بمصر ، فأعظم الناس ذلك وتكلموا فيه ، فلما بلغه ذلك رهب قالةَ الناس فردّ تلك القرية الى الخراج كما كانت للمسلمين ، وكان معاوية كالجمل الطّنيّ [٦١] يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، يرمي بالكلمة فان ذلت العرب امضاها وان انكروها لم يمضها [٦٢]

فلما افضى الأمر الى عبد الملك بن مروان — وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية اقطعها احداً — سأله اشراف الناس القطائعَ منها ففعل حتى لم يبق منها شيء . ثم نظر عبدالملك الى ارض من ارض الخراج وقد باد اهلها ولم يتركوا عقباً فأقطع الأشرافَ منها ، ورفع ما كان عليها من خراجها ، ورآه جائزاً له مثل إخراجه الجوائز للخاصة من بيت المال .

ثم سأل الناس عبدالملك والوليد وسليمان قطائع من ارض القرى التي بأيدي أهل الذمة — وكانت تعد ارضاً للمسلمين ولكنها دفعت الى اهل الذمة على ان يأكلوا منها ويؤدوا خراجها وليس لهم بيعها ولا لأحد ان يشتري منها — فأبى ذلك عليهم هؤلاء

---

(٦١) الطني بالضم وتضعيف الطاء والنون والياء : الجسيم.

(٦٢) فتوح مصر وأخبارها ص ١٠١

الخلفاء ، فعاد الناس يسألونهم أن يأذنوا لهم في شرْي الارضين من اهل الذمة فأذنوا لهم . ومن ثَمّ صارت الارض والقرى والدور دُولةً بين الناس .

وقد استحل بنو أمية الصوافي وشراءها وسكناها ، ولكنّ بني هاشم حرّموها . قال سفيان الثوري : ان كانت لبني أمية حلالاً فهي على بني هاشم حرام ، وان كانت على بني أمية حراماً فهي على بني هاشم أحرم واحرم .

قطائع عمر

اما عمر بن عبد العزيز فلما صار له ان يتصرف في ماله ويتزوج ، فقد وهب له بنو امية — غير ما ورث من ابيه واهل بيته — هبات كثيرة ، وضياعاً منتشرة غنية في كل الآفاق : صارت له ارض يغلها في الحجاز والشام وفي مصر واليمن والبحرين ، ونزل له بعض الخلفاء عن حقه في قطائع غنية ذات غلات ، وقبل عمر ابن عبدالعزيز ما اعطوه راضياً مبتهجاً لم يردّه مهما كان مأتاه : من مواريث او من مظالم ، فليس عليه هو من ذنب — كما ظن — وانما هو رجل يوهب له ، فان كان هناك من ذنب فانما هو على غيره من آبائه واجداده . لم يردّ عمر شيئاً مما اهدي اليه ، بل لم يسأل عن اصله ومأتاه ، حتى صار له من الغنى والثروة ما ليس لغيره من كثير من الأمراء .

صارت له السويداء وخيبر وفدك بالحجاز ، وصارت له المكيدس وجبل الورس باليمن ، وصارت له بَدَا وجزين[٦٣] من

(٦٣) هكذا في تاريخ دمشق ص ٥٩٨ ولعلها حزين (بالحاء) لأن التي بالجيم ليست من أرض بعلبك وإنما من ارض صيداء . وكذلك بدا .

ارض بعلبك بالشام ، وصارت له قطائع متفرقة في مصر واليمامة والبحرين ، وكان لبعض هذه القطائع سجلات ، وبعضها ليس له سجل . كانت اكثر من ان يحصيها عمر او يراها ، وقد وفد عليه منها دخلٌ ضخم من المال قدروه بأربعين الف دينار تفد عليه من غلتها كل عام .

إمرة خناصرة[٦٤]

ولما جاوز عمر العشرين من عمره ورآه عبدالملك قد بلغ من المكانة في العلم والاجتهاد والجاه ورفعة الشأن ما يجعله جديراً بامرة الناس رأى ان ينصبه والياً على إقليم قريب صغير ليتعلم ويجرب ويزداد خبرة ودراية . وكان عبدالعزيز بن مروان قد مات وصارت ولاية العهد الى الوليد وسليمان ، ولم يصر لأبناء عبد العزيز وراثة في الخلافة ، فأراد عبدالملك ان يمسح عن عمر حزنه على أبيه ويرضيه بعد إقصاء عرقه ، فولاه خناصرة سنة خمس وثمانين ، فأقام بها عمر والياً حتى مات عبدالملك واستخلف الوليد ، فأرسل اليه الوليد بامرة المدينة بعد ان خلع عنها هشام بن اسماعيل[٦٥] .

---

(٦٤) خناصرة بليدة من اعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية ذكرها الجعدي وابن الرقاع والمتنبي وجران العود في اشعارهم وفيها يقول المتنبي :

احب حمصاً الى خناصرة ... وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبـ ... ـنان وثغري على محياها
وصفت فيها مصيف بادية ... شتوت بالحصحصان مشتاها
ان اعشبت روضة رعيناها ... او ذكرت حلة غزوناها

معجم البلدان ج ٣ ص ٤٦٧

(٦٥) زين العابدين ص ٧٦